الجزء الثاني عشر من السنة الثالثة

الاحلام

لا غروَ ان الاحلام من اغمض الامور واخفاها والبحث عنها من اعسر الابحاث وادقها كما يستدل من اختلاف الفلاسفة في الكلام عليها وشطط اكثرهم في تعليلها وتباين آرائهم في تفسيرها. قال كبير الفلاسفة ارسطو انما الحلم بقاء صور الاشياء التي يتاثر الدماغ بالشعور بها بعد زوال تلك الاشياء وانقطاع ذاك الشعور وتابعه جمهور كبير من فلاسفة المتقدمين والمتاخرين. وقال الفيلسوفان ديموقراط ولقريطيوس ان الاجسام تنبثق منها اجسام لطيفة مثلها فتطير في الهواء وتدخل على النفس وهي نائمة فتراها النفس وذلك هو الحلم. وقالت طائفة من القدماء ووافقهم بعض المتاخرين ان الارواح تدخل على النفوس وتخيّل لها فتراها النفوس وذلك هو الحلم. وذهب الفيلسوف ولف مذهب ارسطو ان الحلم يحدث من صور المحسوسات واستدرك عليه بان الحلم ان لم يكن اصله من الصور المحسوسة فهو وحي صادر عمّا هو فوق الطبيعة ومذاهبهم في ذلك كثيرة والكلام عليها يطول

اما فلاسفة المتاخرين وعلماؤهم فقد بلغوا الى تعليل الاحلام اقرب مطلع وهذا لشعورنا اليوم: قد بيّنا في الجزء الماضي وما قبله ان عقل الانسان يعلم بما هو خارج عنه بواسطة المشاعر الخمس وان للعقل قوى متعدّدة فله قوة على تذكّر ما يرى ويسمع او يشعر به بشعور آخر وله قوة على تخيل ما يرى او تركيب صور غير موجودة ممّا يراهُ وعلى الانتقال من موضوع الى آخر لرابط يربط الواحد بالآخر الى غير ذلك من القوى التي ليس من غرضنا ذكرها هنا. وزدنا على ذلك انهُ اذا نام الانسان فنومه يحدث من توقّف دماغه واعصاب مشاعره عن العمل بحيث تكفّ عن التاثر بالموجودات الخارجيّة ونقل التاثيرات لبشعريها العقل. وحينئذٍ يرتفع سلطان الارادة عن الاعصاب فتنام واما قوى العقل فتنام وتتعطّل على مذهب قوم ولا تنام ولا تتعطّل بل تبقى عاملة على مذهب آخرين فالذين يذهبون الى ان قوى العقل تنام وتتعطل يقولون ان الحلم يحدث من استيقاظ بعض هذه القوى لسبب من الاسباب فتحيك الحلم على منوال الغرابة وتزوّقه بتهاويل الاخلاط اذ لا ارادة تتسلط عليها ولا قوة حكم تسدّد هنواتها وتكبح جماحها عن الشطط. والذين يذهبون الى ان قوى العقل تبقى عاملة يقولون ان الحلم يحدث من شدة تاثير بعض قوى عقولنا في نفوسنا دون البعض الآخر او من انتباه بعض المشاعر الخمس انتباهًا جزئيًا لسبب من الاسباب فتتذكر تاثير هذه

القوى ولا نتذكر تاثير القوى الباقية . وعلى كلا القولين لابد للحلم من عمل بعض قوى العقل ويؤيد ذلك ما نذكرهُ هنا وهو انهُ في سنة ١٨٣١ اصيبت فتاة بنت ست وعشرين سنة بمرض خبيث اكل جانبًا من جلد راسها وجمجمتها فانكشف دماغها بحيث تيسَّرت مراقبة حركاتهِ . فكانت اذا شغل قلبها شاغل من حديث او ما اشبه فتهيجت يضطرب دماغها اضطرابًا شديدًا ويبرز الى خارج العظم حتى تأوب الى السكون فينتصر . واذا نامت نومًا عميقًا هينًا يرجع دماغها الى مقرّهِ كما كان واما اذا حلمت حلمًا فيضطرب ويبرز ولاسيما اذا كان الحلم مقلقًا . فاستدلوا بعد المراقبة والفحص ان اضطراب دماغها تابع لاشتغال قوى عقلها وانهُ لابد في الحلم من اشتغال بعض القوى فان لم يكن حلم كانت قوى العقل نائمة او كانت عاملة ولكن تاثيرها في الدماغ غير ظاهر

فبناء على ما تقدم يكون الحلم مجموع افكار او حاسات تنتج عن عمل بعض القوى العقلية دون البعض الآخر او عن شدة تاثير بعض القوى العقلية في النفس دون البعض الآخر . اما اسباب انتباه بعض القوى اوشدة تاثيرها فمنها ما يظهر بعد التامل ومنها ما لا يظهر . فالاسباب الظاهرة لابد ان يكون مرجعها الى امر من حالة الانسان الجسدية ونعني بذلك شعورهُ الظاهر كالنظر والسمع وشعورهُ الباطن كالجوع والعطش والمرض . وحالتهِ العقلية ونعني بذلك افكارهُ في حال اليقظة وامياله واهوائهُ وما اشبه

فامثلة الامر الاوّل اي حالة الانسان الجسدية كثيرة مألوفة فالذي ينام على فراش قاسٍ مثلاً يحلم غالبًا بانهُ ينقلب على عظام والذي ينام وطوقهُ مشدود على عنقهِ يحلم انهُ خنق او شنق ونحو ذلك . ومن يقع الغطاء عنهُ يحلم انهُ يجول في الازقة عريان والناس تنظر اليهِ وتسخر بهِ فيتاسى من الخزي اشدَّهُ . ومن تزحل رجلاهُ عن سريرهِ فربما حلم انهُ واقف على شفا جرف هارٍ وتحتهُ امواج المنايا ولجج الموت تفغر فاها لتبلعهُ ومن يزحل راسهُ عن وسادتهِ يحلم بان صخرًا اوشك ان يهبط عليهِ وهلمَّ جرًّا . حكي ان بعضهم كان اذا نام يضع قنانيَ ماء سخن تحت قدميهِ فيحلم انهُ يمشي على حرف بركان انتنا وقد كاد اخمصاهُ يحترقان . وان آخر وضع حراقة على راسهِ ونام فحلم ان هنود اميركا يسلخون جلد راسهِ . وان آخر نام وركبتاهُ مكشوفتان ليعلم تاثير المشاعر في العقل فحلم انهُ مسافر في مركبة لبلاً وركبتاهُ معرضتان للبرد وقد كادتا تيبسان . وان آخر بردت كتفهُ وهو نائم فحلم ان رجلاً امسكهُ بها ويبسها وخال الحلم صدقًا فخاف خوفًا عظيمًا ومات وهو مقتنع بانهُ راى الرجل حقًّا . وان قائدًا احتال عليهِ اصحابهُ فجعلوهُ يحلم ان رجلاً شتمهُ فطلبهُ الى المبارزة وتمَّ معهُ شروط المبارزة كلها ثم وضعوا في يدهِ فردًا فاطلقهُ فاتتهُ مذعورًا من صوتهِ وقص حلمهُ على اصحابهِ فاذا هو مطابق لما ظنُّوا . فهذه واشباهها تدلُّ على ان مشعرًا من المشاعر الخمس انتبه من نومهِ انتباهًا جزئيًّا بموثر

من المؤثرات فتنقل التاثير الى العقل وبقية المشاعر نائمة فركب العقل الحلم منه . فالذي يسمع قرعًا على الباب وهو نائم ربما حلم بان صوت القرع صوت مدفع وذلك بان تنقل الاذن صوت القرع الى الدماغ فتنهض المخيّلة وتفتح ساحة الوغى وتحشد اليها الجيوش وتقيم في اكنافها المتارس والحصون وتستعين بالذاكرة والمتصرفة على اضرام نار المعمعة واطلاق المدافع وتلاحم الجيوش واختلاط الاصوات وارتفاع الضجيج ووقوع من يحلم بين صفوف الاعداء ودنوّ اجله فيرتاع ويضطرب وتهيج حاسّاته ويشتدّ خفوق قلبه فينهض مذعورًا واذا الحرب تصليها يد القارع على الباب

ومثل الشعور الظاهر الشعور الباطن ايضًا فمن ينام جوعانًا فغالبًا يحلم بالطعام ومن ينام عطشان يحلم بان الانهار نضبت والبحور جفت والارض صارت مفاوز محرقة . ومن يثقل من الطعام ولاسيما الطعام الغليظ العسر الهضم قبل نومه فالغالب انهُ يقضي ليلته معانقًا للكابوس فيحلم ان دبًّا كبيرًا قاعد على بطنه او كما حلم بعضهم ان ابليس زارهُ حاملاً بين يديه جبلاً فركب على بطنه حتى كاد يبعّقه . ومن الامور المعروفة ان الكتبة الذين يقصدون وصف اهوال المناظر واغرب التخيلات يثقلون معدهم بالطعام الغليظ قبل النوم وعكسهم الذين يقصدون وصف المناظر البهجة والتخيلات التي ترتاح النفس اليها فانهم يتناولون من الطعام اقله واخفهُ حينئذٍ . ولما كان مرجع ما ذُكر عن الطعام الى تاثير الجهاز الهضمي في النفس دخل تحتهُ تاثير المسكرات في الاحلام فان المسكرات تؤثر في المعدة والمعدة تؤثر في الدماغ فيشعر العقل بتاثيرها . ويقال ان احلام السكارى اغرب الاحلام واشنعها واهولها وافظعها حتى ان السكير ليحلم نفسهُ الف شخص تقاتل بعضها بعضًا وانهُ امرن من الهواء واسيل من الماء واخف من الغاز وانقل من الرصاص في لحظة واحدة تارةً في جوف الارض وطورًا في ذرى الافلاك تارةً تنهشهُ الضواري وتلسعهُ الافاعي وطورًا تلتهمهُ النيران وتمزقهُ الغيلان الى غير ذلك مما لا تصورهُ الاّ اغرب المتصرفات واذكى المتخيّلات . وان انكر الاحلام لحلمُ الذين يفرطون من الحشيش والافيون

ومما يتعلق بما نحن فيهِ معرفة تشخيص الامراض وبداية سيرها من الاحلام فاذا كان المرض لا يزال في درجة الكمون حتى لا يشعر بهِ في اليقظة فكثيرًا ما يؤثر في النفس فتحلم احلامًا يستدلّ منها عليهِ . وان كان المحموم يحلم احلامًا قوية عنيفة دلّت غالبًا على انهُ ينتهي الى الهذيان وان كانت مبهمة مكدرة دلّت على تفاقم الخطب وتزايد المرض وان كانت لذيذة لطيفة دلّت على قرب الشفاء والى هذا مرجع كثير من ادعاآت المنومين المدجلين . وقيل ان المستسقي يحلم غالبًا بالينابيع والانهار والابحار ونحوها ومن بهِ برقان يرى الاشياء في نومهِ مصفرة اللون ومن بهِ التهاب يراها حمراء كالدم ومن بعينهِ عمًى قلما يحلم بالمرئيات ان لم يكن ولد اعمى ولا يحلم بها البتة ان وُلد اعمى . والاطرش يسمع

الاصوات خفية في حلمه كما يسمعها في اليقظة وكذلك من فقد مشعراً آخر لا يحلم بمدركات ذلك المشعر. ففي كل ما تقدم يحسب الشعور علة والحلم معلولاً وقد يكون الحلم علة للشعور. ذكر لقريطيوس ان الاولاد يولون في نومهم لانهم يحلمون بذلك كما هو معلوم وانهُ اذا غطست يد الطفل في ماء بارد يال

وامثلة الامر الثاني اي حالة الانسان العقلية كثيرة معروفة ايضاً فان من ينام متفكراً في امرٍ فالاغلب انهُ يحلم بما كان يتفكر فيهِ لانهُ ان كانت قوى العقل تبقى عاملة ولا تنام في النوم فلا مراء انها تبقى على عملها فتحلم بما كانت تفتكر فيهِ قبل نوم الجسد حتى يطرأ عليها طارئٌ فيشغلها عنهُ ويغير الحلم. وان كانت تنام وتتوقف عن العمل في النوم فان تنبه بعضها وحلم ولم يكن الحلم راجعاً الى حالة الانسان الجسدية فالأولى ان يكون مسبباً عما كان العقل يفتكر فيهِ قبل النوم ولذلك قد يحلُّ الانسان في الحلم قضايا تعسر عليهِ في اليقظة بل قد تطرف جماعة فقالوا اننا نستسهل حل القضايا بعد النهوض من النوم لان العقل يشتغل في حلها كلَّ الليل فلا يأتي الصباح حتى يكون قد استوضح اكثر غوامضها واستشهدوا على ذلك بكندرسه الفيلسوف والرياضي الفرنساوي الذي كان يعارك في نومهِ القضايا التي تعسر عليهِ بتظان حتى يمتلك ناصيتها فيصبح وقد اهتدى الى حلّها . وبفرنكلين الفقيه فانهُ كان يحلُّ معضلات المسائل في نومهِ حلاًّ صادقاً. هذا ولا ينكر ان قوى العقل تقوى بالاستعمال كاعضاء الجسد فالقوى التي يزداد تشغيلها فيما تزيد قوةً حتى لا تعود تحتاج الى ما تحتاج بقية القوى من النوم (ان كانت تنام) فعمل الاحلام في النوم كعمل الافكار في اليقظة. ولذلك يدور اكثر الاحلام على قطب اشغال الانسان واميالهِ واخلاقهِ وهواجسهِ في نهارهِ. فيحلم البخيل بالمال واحرازهِ والعاشق بمعشوقهِ والمغني بصوتهِ وبعودهِ والشاعر بشعرهِ والعالم بعلمهِ والتاجر بتجارتهِ والرذيل برذائلهِ والجبان بجبنهِ والمناتل بالعراك والهجوم والدفاع ونحو ذلك على الغالب. ولما كانت هواجس الناس تظهر في احلامهم فكثيراً ما استُدِلَّ بالاحلام على اخلاقهم وصفاتهم وكثيراً ما تبيَّن منها التقاة والمجرمون والقلقة افكارهم بذنوب ارتكبوها والمعلقة قلوبهم بحب من يودون كتم حبهم لهُ وامثلة ذلك في التاريخ يكاد لا يأخذها العد لكثرتها. وكثيراً ما تعرف اميال الانسان العقلية من احلامهِ فالذين تصبو عقولهم الى العلم طبعاً مثلاً ولم تمكنهم الاحوال من التعلُّم يحلمون بالعلم كثيراً وكل ذلك للسبب المذكور قبلاً. والغالب ان حالة الانسان العقلية تتصرَّف في الاحلام الحادثة من حالتهِ الجسدية فالذي يسمع صوت قرع على بابهِ وهو نائم يحلم بصوت المدفع ان كان مقاتلاً وبصوت العود ان كان مغنياً وبصوت جبير البقر ان كان راعياً ونحو ذلك . والذي يفكر في اسباب احلامهِ طويلاً يردها غالباً الى ما ذكرنا وقد لا يجد لها سبباً في بادئ الرأي ثم يبدو لهُ السبب في اثناء النهار بكلمة يسمعها او فكر يخطر لهُ وقد لا يجد لها سبباً البتة كما اشرنا اليهِ آنفاً (يتلوهُ البقية)